

الجزائر في كتابات الرحالة الألمان: ج.أ. هابنسترايت نموذجا

بوطرفة شفيق: طالب دكتوراه

عيلان عمر: أستاذ محاضر أ

كلية الآداب وال لغات - جامعة عباس لغرور- خنشلة

مخبر تحليل الخطاب و الترجمة

تاريخ قبول المقال: 14/10/2018

تاريخ إرسال المقال: 22/ 06 / 2018

الملخص

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن أهمية أدب الرحلة في تجسيد صورة الآخر من خلال رحلة الطبيب الألماني ج.أ. هابنسترايت (J.E Hebenstreit) إلى تونس و الجزائر و طرابلس سنة 1732م. باعتبار هذه النصوص الرحلية منبعاً للمعلومات، و الأخبار و المشاهدات التي رصدها الرحالة عن الشعب الجزائري. كما يسعى هذا المقال إلى محاولة الوقوف عند المرجعيات التي تبناها الرحالة الألماني في تجسيد صورة الآخر الجزائري و مدى مطابقة هذه الصورة للواقع الجزائري من عدمه.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة الأوروبي، الصوراتية، الآخر الجزائري.

Abstract

This article aims at revealing the importance of the literature of the journey in portraying the image of the Other through the journey of the German doctor (JOHBenstreet) to Tunisia, Algeria and Tripoli in 1732. As these journey texts are considered as a source of knowledge , information and the scenes which are captrued by the traveler about the algerian people. This article seeks to stand on the references which are adopted by the German traveler in the embodiment Of the image of the Algerian Other and the extent of conformity of this image to the Algerian reality or not.

Keywords: European Journey Literature, imagology, Algerian Other

مقدمة

شكّلت أقطار المغرب العربي إحدى أهم محطات الرحالة الأوروبيين إلى العالم العربي نظرا للموقع الاستراتيجي الذي تحظى به بلدان شمال إفريقيا و مكانتها منذ قديم العصور، أين توافد على المنطقة العديد من الرحالة الأوروبيين على اختلاف جنسياتهم و تنوع لغاتهم. وقد حظيت مذكرات و تقارير هؤلاء الرحالة و انطباعاتهم باهتمام الباحثين الأوروبيين، و العرب على حد سواء لما تقدمه من معلومات و تفاصيل عن الآخر الشرقي على الرغم من تنوع اتجاهات هذه الرحلات و تضارب أهدافها.

و نظرا للمكانة التاريخية و الموقع الاستراتيجي للجزائر فقد زارها عدد مهم من الرحالة الأوروبيين الذين تباينت أهداف رحلاتهم بين الاستكشافية و العسكرية و العلمية و التبشيرية و غيرها... غير أن هذه الرحلات في مجملها تلتقي في نقطة مهمة ألا و هي محاولة التقرب من الآخر الجزائري و التعرف عليه عن قرب باعتبار هذه المناطق كانت دائما تشكل نقطة استفهام بالنسبة للصفة الغربية، فقد أصدر الرحالة الأوروبيين الكثير من المؤلفات و الرسائل و المذكرات التي كان موضوعها الرئيس الجزائر بكل تفاصيلها، و قد نجح هؤلاء الرحالة في وصف الواقع الجزائري بكل تفاصيله الاجتماعية و السياسية، و الاقتصادية، ليقدّموا صورة مفعمة بالحياة للمنطقة. أما من بين الرحالة الذين زاروا الجزائر و دونوا ملاحظاتهم نذكر على سبيل المثال لا الحصر المبشر الألماني "إيفالد. Saint_Evald"، الأديب الصحفي غي دو موبسان (guy de maupassant)، عالم الآثار الألماني هاينريش فون مالتسان (Heinrich Von Maltzan)، الأدبية الروسية "إيزابيل إيبهرارت (Isabelle Eberhardt)، النقيب السويسري فون مورالت (Von Morlet)، الدكتور الإنجليزي توماس شو (Tomas Chaw) و غيرهم ممن تقاطروا على الجزائر من كل صوب و حذب فكتبوا عنها الكثير من المذكرات و الملاحظات.

كما تجدر الإشارة إلى أن الجزائر قد شهدت حضورا كثيفا للرحالة الفرنسيين و الألمان مقارنة مع باقي الرحالة الأوروبيين الذين زاروا المنطقة فيما بعد. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن الصورة التي تجسد فيها الآخر الجزائري في الرحالة التي قام بها العالم الألماني ج.أ. هابنسترايت (Johann Ernst Hebenstreit)، و مدى مطابقتها للواقع الجزائري في أواسط القرن الثامن عشر.

أولا : أهمية أدب الرحلة في تمثيل صورة الآخر

يعد نص الرحلة من الأنواع الأدبية التي ساهمت بشكل واضح في تصوير الآخر و الخوض في تفاصيله، إذ أنه يعكس و يوثق ما يصادفه الرحالة من مشاهد و صور متنوعة منقولة بأسلوب بارع يبعث الرغبة في قراءة هذه النصوص المشوقة و التمتع بالأماكن التي زارها الرحالة فضلا عن وصفه الدقيق لعادات و تقاليد الشعوب التي جسدها في رحلته التي تضم بين ثناياها الكثير من الأبعاد و الأهداف انطلاقا من مرجعيات ثقافية و إيديولوجية للأنما، مما يجعل هذه الأنواع من النصوص عينا مفتوحة على الآخر و مختلف مظاهر حياته الثقافية، و الاجتماعية و الدينية، و كل ما يساهم في تشكيل خصوصيته. فقد شهد الشرق على مر القرون توافد الكثير من الرحالة الأوروبيين من مختلف الأقطار في محاولة منهم اكتناه أسرار الشرق الذي دائما ما وصف بالساحر ! حيث حظيت رحلاتهم بإعجاب كبير في وسط المتلقين لها.

إن الرحلة أجمل صورة لالتقاء الإنسان بالعالم الخارجي، لتبين لنا في الأخير براعتهم في تصوير الأحداث التي عايشوها هناك، فنقلوا أدق تفاصيل الآخر، « و أيا كانت دوافع الرحالة، المعلنة منها و الخفية فقد اتصفت أغلبية الرحالة -و لو بدرجات متفاوتة- بدقة الملاحظة و الوصف و التقصي في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق...»¹ يتضح أن لهذه الرحلات دوافع عدة إلا أن الشيء الملاحظ من خلال هذه الرحلات استعانة أصحابها بكل تقنيات الوصف و أبعاده حتى يتمكنوا من نقل و تسجيل هذه المشاهد للمتلقي كمحاولة لتقريب صورة الآخر للأنما. « في المقابل نجد بعض الأدباء حين يواجه بصور الشعوب الأخرى يصبح أكثر تمسكا بهويته الثقافية و أكثر استعلاء على الآخر، حيث يكتشف حسنات نمطه في الحياة و تفوق ثقافته على الثقافات الأخرى.»² إن الذاتية في نقل الصور و المعلومات تفرض نفسها على بعض الرحالة مما يجعلهم يمارسون النظرة الاستعمارية على الآخر و كل ما يتعلق به من نمط في الحياة أو ثقافة أو عادات و تقاليد و قد تساهم هذه النظرة في إنتاج صور مشوهة أو تبني أخرى نمطية.

لذلك لا ينبغي علينا إغفال التفاوت بين هذه المشاهد المنقولة التي تعد «المكونات الفاعلة في رسم صورة الآخر على نحو ما تظهر عليه في متن (الرحلة الأوروبية) في القرن التاسع عشر»³ فرسم صورة الآخر العربي يستدعي تجميع مكوناتها الأولية من تلك الرحلات التي قام بها الرحالة الأوروبيون إلى العالم العربي مع بدايات القرن التاسع عشر. فقد «انصرفت جهود العديد من الرحالة إلى تدوين

نصوص رحلية تندرج ضمن خانة الرحلات الوصفية التي يدونها الرحالة عقب رحلة سافر فيها إلى مكان آخر بقصد التحصيل العلمي و تلاقي التجارب الثقافية، و الاحتكاك بمكونات معرفية و ثقافية أخرى.⁴ فحاجة الإنسان إلى التحصيل العلمي، و الارتشاف من مصادر ثقافية و معرفية أخرى دفعته إلى السفر و الترحال بعيدا، و بالتالي كتابة نصوص رحلية مميزة بالاستعانة بكل أساليب الوصف الفاعلة.

و تجدر بنا الإشارة أيضا إلى النسق الثقافي الذي تبنى عليه هذه الرحلات « ذلك أن الرحالة كان مسكونا بنسقه و متلقيه، فيرحل و معه خصوصياته و ثقافته و نسقه الذي يكون حاضرا في تجربته، و مشاهداته، و مرويياته، و ينتقل معه إلى العوالم التي ارتحل إليها. و يساهم في إنتاج هذه النصوص، و يملئ على الرحالة ذكر أشياء و حذف أخرى.⁵ هذا يعني أن الرحالة مهما كان موضوعيا في نقل مشاهداته و مرويياته التي صادفته في رحلاته إلا أنه سيظل خاضعا لمكوناته الثقافية، و خصوصيته المعرفية التي تحتم عليه في كثير من المحطات حذف بعض المشاهد التي لا تتماهى و أنساقه الثقافية الظاهرة منها أو المضمرة.

لهذا فقد تعددت الرحلات و تنوعت بحسب أهدافها و أبعادها، و كان الشرق عنوانها و كان النمط الغالب في الرحلات « يتعرض إلى جميع نواحي الحياة أو يكاد، ... فالرحالة و هو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة، ... و لا شك أنهم يختلفون في درجة صدقهم أو أمانتهم و في تنوع فهمهم لأمر تحت الظروف المتغيرة التي يخضعون لها.⁶ تأسيسا على ما سبق يمكننا القول إن الرحالة على اختلاف أجناسهم و تنوع ثقافتهم قد ساهموا كثيرا في تصوير الآخر و نقل كل تفاصيله، خصوصياته الاجتماعية، و الثقافية، و الاقتصادية انطلاقا من المدونات و المذكرات و اليوميات التي قاموا بنشرها عقب انتهاء رحلاتهم.

ثانيا: دوافع رحلة "ج.أو.هابنسترايت" إلى شمال إفريقيا

زار العالم و الطبيب الألماني "ج.أو.هابنسترايت" الجزائر و تونس و طرابلس في النصف الأول من القرن الثامن عشر. و قد دون رحلته في شكل أربع رسائل قد وجهها إلى الملك البولوني أغسطس الثاني (Auguste II) الذي كلفه برئاسة البعثة العلمية إلى شمال إفريقيا بهدف التعرف على نباتات تلك المنطقة و الحصول على الحيوانات النادرة، فعمل على جمع عينات لفائدة القصر الملكي و قد نجح إلى حد كبير في القيام بتلك المهمة. حتى أنه عرف كيف ينال ثقة حكام شمال إفريقيا الجزائر، تونس، ليبيا، كما أظهر حسن التصرف خلال إقامته هناك غير أن الظروف لم

تساعده على التعرف أكثر على تونس و طرابلس، بعد أن سادت روح العداء للوجود الأوروبي نتيجة الاحتلال الإسباني لوهرانو المرسى الكبير سنة 1732. مما اضطره إلى تحديد تحركاته و إنهاء مهمته بسرعة...⁷

ثالثا: الوصول إلى الجزائر

بدأ الطبيب و عالم النبات الألماني "هابنسترايت" رحلته إلى الجزائر عند مغادرته لمدينة دريسدن الألمانية في 23 أكتوبر 1731 و توجهه إلى مرسيليا في شهر نوفمبر وركوبه السفينة نحو الجزائر في 24 جانفي 1732 و قد سجل أول رسائله عن الجزائر في 16 فيفري 1732 حيث انصب اهتمام الرحالة بعادات و تقاليد السكان وأوضاعهم الاجتماعية و الثقافية و كذا الدينية مما يجعل من هذه الرسائل مرجعا مهما لا يمكن بأية حال الاستغناء عن المعلومات و الحقائق التاريخية التي تخص منطقة شمال إفريقيا خاصة و أن الرحالة قد قام برحلته في فترة قد شهدت هيمنة الجزائر على البحر الأبيض المتوسط نظرا للدور العسكري الكبير الذي لعبته في المنطقة فضلا عن تمكن الدايات من إدارة شؤون بلدان شمال إفريقيا بعيدا عن التدخل المباشر للسلطة العثمانية التي كانت تشكل آنذاك مركزا للدولة الإسلامية المتزامية الأطراف.⁸

رابعا: مدينة الجزائر (المكانة التاريخية و السياسة، التضاريس و الطبيعة)

أ- الموقع و الطبيعة

تعتبر مدينة الجزائر من أبرز المدن المطلة على البحر الأبيض المتوسط خاصة وأن الجزائر في تلك الفترة شكلت قطبا سياسيا و اقتصاديا مهماً فهي حسب الرحالة مدينة محصنة برا و بحرا نظرا للحروب الكثيرة التي كانت تخوضها قبالة البحر الأبيض المتوسط فمن الجهة البرية « تدافع عنها أربعة حصون و هي حصن الإمبراطور والبرج الجديد و برج عزون و برج باب الوادي، و المدينة في حد ذاتها تعتبر محصنة جدا نظرا للأسوار و الخنادق التي تحيط بها.»⁹ إن الموقع الاستراتيجي للجزائر التي تعد بوابة لأفريقيا جعلها مستهدفة من قبل الدول الأوروبية الاستعمارية و هذا ما يجعل من تحصين المدينة بسبعة حصون أمرا طبيعيا جدا.

أما عن المناظر الطبيعية و التضاريس المحيطة بضواحي العاصمة فيقول الرحالة أنها « تضاريس جبلية و لها مناظر تدخل البهجة و السرور على النفس، تتخللها أودية رطبة تتميز بخصوصيتها، تشاهد فيها الكثير من الحدائق بها أشجار العنب والبرتقال و اللوز و غيرها من الأشجار المثمرة و غير المثمرة مثل السرو، و لهذا يفضل

الأشخاص الذين لا تضطربهم أشغالهم للبقاء في المدينة قضاء الصيف في المنازل الريفية «¹⁰ على الرغم من الحروب الكثيرة التي كانت تخوضها الجزائر بين الفترة والأخرى و نظرا لتلك الحصون الكثيرة التي تحيط بالمدينة إلا أن هذا لم يُخفِ أبدا جمال طبيعة المدينة الذي يبعث السرور و البهجة في نفس الإنسان كما يذكر الرحالة أن أراضي الجزائر صالحة للزراعة و أن الرطوبة هناك تعوض عدم نزول المطر.

كما تعرف الرحالة على أشهر الأقاليم الزراعية الجزائرية -مشيرا إلى خصوبة أراضيها و كثرة المحاصيل الزراعية التي يتم جنبها منها- على غرار سهل "متيجة" الذي وصفه الرحالة بأكبر السهول التي صادفته في شمال إفريقيا فسهل متيجة حسب الرحالة: « غني جدا بالحنطة و باقي أنواع الحبوب التي تزرع في موسمين سنويا و تعطي محصولين في السنة الواحدة، و ترعى به قطعان من المواشي لا يمكن عدها و هي تدوس الزهور و النباتات النادرة التي لم نجدها أثناء سيرنا إلا و قد قضمتها تلك الحيوانات أو داستها بأقدامها الأمر الذي حال دون استعمالها في أبحاثنا »¹¹ يعتبر سهل متيجة من أشهر السهول الجزائرية التي تدر علينا سنويا بخيراتها، فهو كثير الحنطة مثلما أشار إليه الرحالة و دائم الخضرة بفضل خصوبة أراضيها.

يفرد الرحالة جزءا مهما من رحلته للحديث عن أهم الحيوانات البرية و أنواع النباتات الموجودة في أقاليم الجزائر خاصة و أن مهمة "هابنسترايت" في الجزائر تقتضي جمع معلومات حول أهم الحيوانات التي تعيش في شمال إفريقيا و إرسال عينات من النباتات النادرة للملك البولوني الذي كلفه بهذه الرحلة. حيث يقر الرحالة بأن الإقليم الجنوبي للجزائر غني جدا بالحيوانات النادرة، فقد تحصل "هابنسترايت" بأمر من الداى على العديد من الحيوانات المتوحشة التي تعيش في عزلة على غرار: اللبؤة الصغيرة و القط المتوحش و ابن مقرض و كذا ضبي صغير و طائر النعام فضلا عن ذلك فقد تحصل الرحالة على مجموعة من الأسماك النادرة التي قام بتجفيف بعضها و رسم البعض الآخر منها قصد إرسالها إلى الملك أغسطس الثاني. كما يشير الرحالة الألماني أن الدايات يقومون بإرسال الحيوانات النادرة كهدايا للدول الأوروبية.¹²

ب- المجتمع الجزائري (مكوناته الإثنية)

يتطرق الرحالة إلى المكونات الإثنية للمجتمع الجزائري في تلك الفترة معتبرا أن « سكان مملكة الجزائر ليسوا كلهم من أصول واحدة فالحكومة بيد الأتراك الخالص أي الذين ينحدرون من آباء و أمهات أتراك »¹³ تأسيسا على ما جاء به الرحالة

يمكننا القول بأن المجتمع الجزائري خليط اثني غير أن الشيء الملفت للانتباه هو احتكار الأتراك الحكم و عدم سماحهم للجزائريين بأن يشغلوا مناصب سياسة سامية باعتبار الجزائريين أصحاب الأرض و من حقهم تسيير شؤونهم و تمتعهم بالحكم الذاتي و نحن إذ نقول هذا الكلام لا ننكر فضل الإخوة بربروس في إنقاذ السواحل الغربية من الغزو الإسباني؛ و يؤكد أبو القاسم سعد الله أن الحكام العثمانيين لم يحترموا هذا المبدأ و ورثوا الحكم و نظروا للجزائريين نظرة الغالب للمغلوب « و كان من المفروض أن يطبق الحكام العثمانيون تعاليم الإسلام في الحكم، و أن يؤاخوا بينهم و بين السكان و أن يشاوروهم في الأمر و أن يفسحوا المجال أمامهم، و أن يختلطوا بهم و يخالطوهم. و لكنهم في الواقع أساءوا التصرف، كمعظم الحكام عندئذ فحكموا كقمة متميزة و احتكروا الحكم في أيديهم طيلة الفترة العثمانية و استبدوا بالسلطة و استذلوا السكان و استعلوا عليهم وعاملوهم معاملة المنتصر للمهزوم. »¹⁴

فالأتراك لم يكتفوا بالهيمنة على المناصب السياسية و العسكرية فقط فهم ينظرون إلى الجزائريين - حسب ما جاء به الرحالة هابنسترايت - « نظرة يشوبها الاحتقار و ينعتونهم بأنهم مجموعة من العصاة أو الخارجين عن القانون فلا يجندون أحدا منهم في الحامية »¹⁵ إن احتكار الأتراك للمناصب السياسية واحتقارهم وتهميشهم لأصحاب الأرض ثم إرغامهم على دفع الكثير من الضرائب مسوغ لخروج الجزائري عن الطاعة و امتناعه عن دفع الضرائب فمن غير المعقول أن يؤدي الإنسان واجبه دونما تمتع بالحقوق التي تشعره بالانتماء و المواطنة فهو صاحب الأرض التي اختطفها الأتراك.

ثم إن نظرة الأتراك الدونية للآخر الجزائري ليست حكرا على الرجال فقط، فحتى النساء التركيات يحملن نفس النظرة عن الجزائريين. أما عن الزواج فيقول الرحالة أن الأتراك يتزوجون من المسيحيات أو مع الجزائريات غير أن أولادهم الذين يحملون اسم الكراغلة* (cololis) يسمح لهم فقط بالانضمام إلى الجيش.¹⁶

إضافة إلى الأتراك و الكراغلة يتحدث الرحالة عن الحضر الذين يسكنون مدينة الجزائر هؤلاء الذين يعتبرون « السكان الأوائل للمدينة حيث فرض عليهم التبعية المطلقة، فليس لأحد منهم الحق في حمل السلاح، كما أن أملاكهم معرضة للمصادرة لأقل خطأ يصدر منهم في حق الأتراك، و هم مجموعهم يشتغلون كعمال

وتجار»¹⁷ يبدو أن ولاء الحضر للسلاطين العثمانيين لم يشفع لهم، فقد تعرضوا للتهميش وصادرة حقوقهم وأملاكهم كلما أساءوا التصرف مع الأتراك مما يعني أنهم في فوهة البركان فليس لهم الحق في حمل السلاح و الدفاع عن أنفسهم و أملاكهم مقارنة بالعرب و البربر.

لذلك يرى الرحالة بأن القبائل و العرب البدو الذين يسكنون في الأرياف بعيدا عن المدن « يتمتعون بحرية كبيرة، و هم ينقسمون إلى قبائل و عشائر تعيش تحت الخيام و عندما ينتقلون من مكان إلى آخر يحملون معهم كل ما يملكونه من أقوات و متاع و حيوانات»¹⁸ إن بعد القبائل و العرب عن المدن و تواجدهم في المناطق النائية و الجبال الوعرة و الصحراء الشاسعة قد مكنهم من العيش بسلام و حرية بعيدا عن الاضطهاد الذي كانت تمارسه السلطات العثمانية في حقهم كما أن امتلاكهم للسلاح سمح لهم بالتهرب من دفع الضرائب و التصدي لجند المحلة المكلفون بجمع الضرائب أو الهروب إلى أعماق الصحراء كلما حان وقت جمع الضرائب.

من بين الأجناس المتواجدة أيضا في مدينة الجزائر يذكر الرحالة اليهود الذين يشكلون قطبا اقتصاديا مهما نظرا لاشتغالهم بالتجارة، فمدينة الجزائر « مأهولة بعدد كبير من اليهود و يسدد كل واحد منهم ضريبة تقدر بريالين في الشهر، و هذا ما يدر على الخزينة مقدارا معتبرا من المال»¹⁹ يعتبر اليهود من أكبر الطوائف المتواجدة في مدينة الجزائر حيث يصل عددهم إلى 8000 نسمة. كما يذكر الرحالة النصارى الذين اندمجوا في العنصر التركي سُمح لهم بالتمتع بالعديد من الامتيازات غير أنهم ظلوا مبعدين عن تولي منصب الداي²⁰

ت- العمران

1- المنازل والشوارع

يشغل العمران حيزا مهما في أدب الرحلة حيث يتحدث الرحالة بإسهاب عن طبيعة عمران البلدان التي قاموا بزيارتها، بل فقد راح الكثيرون إلى وصف البنايات و الشوارع وصفا دقيقا يمكننا من تخيل طبيعة العمران آنذاك، أما عن منازل العاصمة فهي حسب "هابنسترايت" « منتظمة و بناؤها جيد بالنسبة لنوعيتها، و يحرص في بناءها أن يكون كل جزء من المنزل منفصلا عن الأجزاء الأخرى و لاسيما الأجزاء الداخلية حتى تظل النساء في معزل، بحيث لا يمكن أن يراهن أحد، و كذلك يستخدم الرواق كمكان للتوقف بحيث يخلع الحذاء قبل الدخول إلى المنزل إذا تطلب الأمر ذلك، و

ينفتح المدخل على فناء مبسط بقطع رخام... و عادة ما يكون الفناء مربع الشكل محاط بصف أو صفين من الأروقة، أما الغرف فهي مستطيلة تزينها صور أوراق الأشجار وأشكال المنمنات المحفورة على الجبس»²¹ يبدو أن منازل مدينة الجزائر قد لاقت إعجابا لدى الرحالة فهندستها لا تخلو من الخصوصية الشرقية خاصة إذا ما تعلق بطريقة تقسيم المنزل التي يراعى فيها دائما عزل الأجزاء التي تقيم فيها النسوة عن بقية الأجزاء و مرد ذلك مبالغة الآخر العربي في الغيرة على حريمه بسترهن قدر الإمكان حفاظا على حرمة المنزل مثلما أشار "جيرارد دي نرفال" (Gérard de Nerval) في رحلته إلى الشرق و هو يتجول في شوارع القاهرة.

لا ينصب اهتمام العاصمي على تقسيم منزله بشكل جيد و تزيينه فحسب؛ إذ يفكر في راحته التي يجدها في الأسطح المهيئة « لأن تكون مكانا للاستراحة وتشاهد في المنازل الزهور والنباتات و الأثاث الجميل، و طريقة المحافظة عليها تدل على التزام السكان بقواعد النظافة و النظام، و لا ينفذ ضوء النهار إلى المنازل جهة الشارع حيث لا توجد إلا منافذ صغيرة لا يمكن رؤية الخارج منها، و إنما يصل الضوء إليها من الفناء المنفتح على الغرف.»²² إن حرص الجزائري على تهيئة أسطح المنازل وغرسه لمختلف الأزهار و النباتات ينم عن تحضره فلا يجد الإنسان راحته إلا بين أحضان الطبيعة تحت قبة السماء.

أما عن المنازل الريفية فإن "هابنسترايت" يرى أنها مريحة جدا لأنها بنيت وفق هندسة تسمح لها بأن تكون أكثر برودة في فصل الصيف، كما يرى أن أشجار البرتقال تضيء عليها جمالا كبيرا. غير أن الرحالة يخبرنا بصعوبة التجول في شوارع العاصمة نظرا لضيقها و اتساخها خاصة وهي تعج بالمارة و الجمال ونحن نرى أن هذه المناظر من شأنها أن تشوه صورة العمران خاصة ما تعلق بضيق الشوارع و اتساخها.

2- المساجد

يتحدث الرحالة عن المساجد الموجودة في الجزائر مشيرا إلى عددها و طبيعتها هندستها و كذا مكانتها المقدسة لدى الآخر الجزائري قائلا: « أما المساجد فهي متقنة البناء، منها عشرة مساجد كبيرة ذات منارات، أما التي تقل عنها شأنًا فعددها يفوق الخمسين... أما أرضيتها فهي مغطاة بالحصائر و الزرابي و أبنيتها تشدها عرصات قوية تتدلى بينها في اتساق و نظام قناديل من الزجاج»²³ تحظى أماكن العبادة باهتمام كبير في البلدان الإسلامية فتقدّس المسلمين لأماكن العبادة على غرار

المساجد يدفعهم إلى الاهتمام بها و السهر على حمايتها و نظافتها خاصة لأنها تعكس جزءا مهما من الهوية الإسلامية للبلد أما عن هندستها و طريقة تزيينها فهي نفسها في كل الأقطار الإسلامية.

3- المقابر وأضرحة الأولياء الصالحين

تحظى المقابر باحترام المسلمين إذ لا تقل أهمية و قداسة عن المساجد ، لذلك تطرق الرحالة إلى مقابر مدينة الجزائر التي « تعتبر مزارات و خاصة أضرحة المرابطين التي تتخذ أماكن للعبادة و يكون الجناة في مأمن عند احتمائهم بأحد المساجد أو الأضرحة ، و كل مسيحي نزق أو طائش يدخل إليها ينظر إليه السكان و كأنه اعتنق الإسلام و أماكن العبادة هذه لا يمكن للمرار بها التعرف على ما بداخلها ، »²⁴ لا يكاد يخرج هذا الوصف الذي قدمه الرحالة الألماني في القرن الثامن عشر عما هو عليه الحال في القرن الحالي ، فالمساجد منتشرة في كل أقطار الوطن و فيها الصغيرة و الكبيرة مثلما هو الحال بالنسبة لأضرحة الأولياء الصالحين التي تشكل مزارات لعدد من الناس ، إلا أن الشيء الملفت للانتباه هو الأمان الذي يشعر به الأجانب داخل الأماكن المقدسة للمسلمين ، مما يدل على تعايش الجزائري المسلم مع الآخر المختلف عنه دنيا.

خامسا: الحياة الاجتماعية

1- الأخلاق والدين

يصور الرحالة الألماني أخلاق الآخر الجزائري بطريقة موضوعية منافية لتلك الصور النمطية التي عهد الغرب تصويرها و التي لا تخرج عن دائرة البرابرة المتوحشين الذين لا دين و لا أخلاق لهم في قوله: «و هذه البلاد " مملكة الجزائر " تعرف عادة لدى الكتاب الأوروبيين برباريا* (Barbarie) أو البلاد المتوحشة ، و حسب دلالة هذه الكلمة فإنها تعني أنها مأهولة بأشخاص متوحشين و شرسين و هذا ما نعتبره منافيا للحقيقة ... فهم أفراد بعيدون عن التوحش و يقدرن الأجانب و لهم رغبة ملحة في التعاون معهم »²⁵ يبدو أن احتكاك الرحالة الألماني بالآخر الجزائري قد كشف له صورة مغايرة تنفي صورة التوحش على خلاف ما كان يروج عنه من سمات التخلف والبدائية و الوحشية ، فالرحالة يقر بأن تواجده بالجزائر قد سمح له بالتعرف على سلوك و عادات الجزائريين الحقيقية التي تتنافى تماما مع ما جاءت به كتابات كل من مارمول (Mármol) و دابير (Dabir) و دو تاسي (De Tassy) عن الجزائر هذه

الكتابات التي يرى الرحالة أنها تتسم بالسطحية و العداء لشمال إفريقيا الذي كان خاضعا للسلطة العثمانية.²⁶

فقد استندت المركزية الغربية إلى مجموعة من الرؤى الثقافية التي أدت إلى خلق ذلك التمايز بين الغرب والشرق، و بالرغم من إيجابية الصورة التي ينقلها الرحالة عن سكان الجزائر و التي نراها بعيدة عن التعصب العرقي فإن «هذا الانفتاح الفكري للغرب على الآخر لا يزال هشاً وحديث العهد أكثر من اللزوم، وبالتالي يصعب عليه أن يغذي الأمل بالمستقبل، أقصد الأمل بمستقبل ينظر فيه إلى الآخر وكأنه شخص محترم مثله في ذلك مثلنا أو كأنه شعب له كافة الحقوق المادية والمعنوية تماما كشعوب الغرب...»²⁷ من حق الشعوب الشرقية أن تحظى بالاحترام من قبل بقية الشعوب و خاصة الغرب هذا الأخير الذي نصب نفسه مركزا مقابل تهميش بقية الأقطار و مرد ذلك التشبع بأفكار صليبية معادية لكل ما هو إسلامي و عربي غير أن ما يبعث على الأسى هو ركوب الكثير من المثقفين الأوروبيين هذه الموجة التي نجدها في كثير من الأحيان مخالفة تماما للواقع الشرقي.

ينقل الرحالة صورة توحى بسمو أخلاق الآخر الجزائري الغيور على دينه، فالجزائريون حسبه «يقومون في الغالب بالحج إلى مكة...و يتمتع المسلمون الأتقياء عن شرب الخمر»²⁸ إن ما أورده الرحالة الألماني حول الآخر الجزائري ينم عن وعي الأنا الأوروبية بالخصوصية الدينية للمسلمين من احترام لمبادئ الدين الإسلامي و مقدسات المسلمين.

2- الشجاعة والمروءة

يصور الرحالة الألماني "ج.أو.هابنسترايت" بسالة الآخر الجزائري من خلال ردة فعله على الحملة التي شنّها الأسطول الإسباني على مدينة وهران قائلا: « إن الجزائريين لا تنقصهم الرغبة في الدفاع، و أن لهم من الإمكانيات ما يجعلهم يقاومون مقاومة شديدة، و لذا يجب علينا أن ننصف هذا الشعب و خاصة الحامية التركية، فنعترف بأنهم يستميّتون من أجل الدفاع عن أنفسهم، و يستبسلون عند التصدي لأي هجوم يتعرضون له، و هذا ما اكسبهم هيبة.»²⁹

مثل النص الرحلي الآخر الجزائري في صورة المقاوم و المناضل الذي لا يتوانى أبدا في الدفاع عن نفسه و أرضه مهما كانت قوة العدو الذي يُغير عليه. كما يشير الرحالة الألماني إلى بسالة العثمانيين المتواجدين بالجزائر و الذين لا يختلفون كثيرا عن الآخر الجزائري في التصدي لأي هجوم من شأنه أن يلحق الأذى بهم أو

بممتلكاتهم، و هذا ما جعل مدينة الجزائر حسب الرحالة « من المدن المهمة في إفريقيا فقد واجهت في كل الأوقات جيوش أقوى الدول»³⁰ كما تجدر الإشارة أن هناك الكثير من الرحالة الذين أشاروا إلى شجاعة الآخر الجزائري و شدة مقاومته للغزاة. مثلما ورد في رحلة هاينريش بارت (Heinrich Barth)³¹.

يواصل الرحالة نقل الصور التي توحى بشهامة الجزائريين و أخلاقهم الفاضلة النابعة من الدين الإسلامي الذي يدعو إلى حسن المعاملات بين أبناء المجتمع الواحد و حتى مع الأسرى المسيحيين إذ يبين أن عادات و تقاليد الجزائريين « تحدها ضوابط الشريعة الإسلامية، فالمسلم الصالح يتوجب عليه حسن معاملة أصدقائه، يطلب منه أن يكون شديداً مع أعدائه رحيماً بالمنهزمين، و في هذا الشأن قارنت بين حالة الشقاء التي عليها الجزائريون بمرسيليا مع وضعية الأسرى المسيحيين بشمال إفريقيا فالأولون لا يستطيعون إلا بشق الجهد جر أغلالهم الثقيلة، بينما الآخرون و هم الأسرى المسيحيون في الجزائر يقضون نهارهم أحراراً مقابل دفعهم مبلغاً مالياً كل شهر و في هذا الجو يتمتع الكل في الجزائر بحرية المعتقد ، فالأجانب يكرمون و الكل في وضعية تمكنهم من القيام بما يرغبون»³¹.

إن المتعمق في ما نقله الرحالة الألماني "ج.أ. هابنسترايت" عن الآخر الجزائري سيدرك حتما الفرق الشاسع بين الجزائريين و الفرنسيين انطلاقاً من المعاملات الاجتماعية، و كذا في معاملة الأسرى التي كثيراً ما كان الرسول (ص) يوصي بحسن معاملتهم و الامتناع عن إهانتهم مهما كانت جنسيتهم و ديانتهم نفس الشيء بالنسبة لحرية المعتقد فإن سماحة الآخر الجزائري و كرمه و تعايشه الديني مع الآخرين إنما هو نابع من تمسكه بتعاليم الدين الإسلامي الذي يحث على حسن معايشة و معاملة من يختلفون عنا في المعتقد.

3- المرأة الجزائرية

يورد الرحالة صوراً عن المرأة الجزائرية تجلّت في قوله: «أغلب العادات التي يمارسها الجزائريون تستند في أساسها إلى قوانين، و ليس فيها ما يفاجئ الأوروبي كغياب النساء عن الحياة العامة، و احتشامهن الشديد، فلا يسرن في الأزقة بدون حجاب و حتى منازلهن تكاد أشعة الشمس لا تصل إليها، و عندما يسافرن على ظهور البغال يكن مختبئات في ستائر غريبة و قد ترجاني أحد الأتراك من ذوي المكانة المتميزة أن أعالج زوجته، و عندما طلبت من أن أرى المريضة أجابني من الأفضل أن

تموت على أن يراها أحد»³² تبدو المرأة الجزائرية في هذا المقطع من النص الرحلي في صورة المتديّنة الملتزمة بضوابط الشريعة الإسلامية الداعية إلى العفة والحياء كما أنها تظهر بعيدة عن الحياة الاجتماعية و الرحالة يقصد بذلك عدم تواجدها في الأسواق و مشاركتها لبقية نواحي الحياة من تجارة و عمل مقارنة مع المرأة الأوروبية غير أننا نرجع السبب إلى العادات و التقاليد التي تميز كل بلد عن الآخر.

4- القضاء

يعرفنا الرحالة الألماني على طبيعة القضاء الجزائري في فترة الدايات حيث يوجد بها محكمتين أولية و يشرف عليها أحد القضاة و الثانية يشرف عليها الداي شخصيا بحيث يمكن لأي كان استئناف أو عرض قضيته على الداي في حالة عدم إنصافه، كما يشير الرحالة إلى مدى التزام القضاة بتطبيق العدالة كلما أقسموا بشرع الله فضلا عن ذلك فإن النطق بالحكم أو النظر في القضية لا يتطلب وقتا كبيرا ذلك أن «قصر الملك أي الداي يستعمل في نفس الوقت كقصر للعدالة، فالداي يجلس منذ الصباح و حتى المساء في أحد أركان فناء هذا القصر المستخدم كقاعة استقبال، و في إمكان كل واحد أن يعرض قضيته، و قبل ذلك يتخلى عن سلاحه، و كلمة "شرع الله" أو عدالة الله في هذا المقام وزن كبير، بحيث أن كل فرد مهما علا شأنه يحصل على تطبيق حكم العدالة مجرد النطق به... و بعد محكمة الداي تأتي محكمة القاضي و التي تشكل محكمة أولية يمكن رفع الشكوى إلى محكمة الداي، و لا يتطلب الانتهاء من القضية وقتا طويلا»³³.

إلا أن ما يحسب على العثمانيين هو ذلك التمييز بين السكان الأصليين و الأتراك فعلى سبيل المثال أثناء تطبيق العقوبة التي يصدرها القاضي أو الداي فإن « الأتراك تتم معاقبتهم في سرية حفظا لكرامتهم، بينما تنفذ الأحكام علانية في الحضر و باقي السكان الآخرين عند باب عزون و الأسرى المسيحيون غالبا ما يضطرون للقيام بمهنة الجلال التي ليس فيها ما يعيرهم أو ينقص من مكانتهم لأن أمر تنفيذ الإعدام يتولاه الشواش و هم الضباط الرئيسيون بقصر الداي في هذا الشأن»³⁴ إضافة إلى الضرائب التي أرهقت كاهل السكان الأصليين للمنطقة فإن مثل هذه السلوكات التي كانت تمارسها السلطة العثمانية كانت في كل مرة تزيد من الهوة في العلاقة التي تجمع بين الجزائريين و الأتراك فمن طباع الجزائريين الثورة على كل ما يسيء له و لكرامته.

خامسا: الحياة الاقتصادية

1- ثروة العربي

بينما كان الرحالة الألماني يواصل رحلته في العمق الجزائري بحثا عن الحيوانات النادرة و النباتات التي يستعملها كأدوية صادف مجموعة من العرب الذين يسكنون في الجبال و المناطق النائية حيث سنحت له الفرصة بالتعرف على النشاطات التي يقوم بها هؤلاء العرب و طريقة عيشهم هناك كما تعرف على ثروة العربي المتكونة من « خيمة مسودة من دخان الموقد ينقلها حسب رغبته من مكان إلى آخر و قطيع ماشية و زاد من القمح محفوظ في أحد المطامر و بعض الأثاث، و سكان الريف هؤلاء يلبسون حسب مقتضيات الوقت، و يكفي الواحد منهم أن يكون له برنوس من صوف نظيف بعض الشيء ليكسو به جسمه ليصبح شيخا أو قائد دوار. وأنه لشرف عظيم أن يمتلك واحد منهم سلاحا ناريا مع كمية من البارود و الرصاص، و هذان الأخيران يعتبران أفضل هدية تقدم إلى هؤلاء الناس »³⁵ يحيا العربي الذي يسكن الجبال و الأرياف حياة بسيطة جدا إذ يشتغل على تربية المواشي و زراعة الحنطة، كما تشاركه نساءه في مختلف الأعمال -كما هو معروف- على الرغم من مشقتها ثم إنه يبدو متعلقا بندقيته التي يستعين بها في الدفاع عن نفسه و صيد الحيوانات المفترسة كما يشير الرحالة إلى أن العرب كثيرا ما يستعملون هذه الأسلحة في صد رجال البايك الذين يأتون من أجل تحصيل الضرائب مما دفع بالسلطة إلى تجريد الكثير من هؤلاء الذين لا يبدون أي ولاء و طاعة له.

2- الضرائب والجباية

لا يكتفي الرحالة الألماني "ج.أ. هابنسترايت" بنقل الصور الإيجابية التي تمّ التطرق إليها ولكنه صور الآخر الجزائري في جوانبه السلبية كذكره لقضية عدم تسديد الجباية للحاكم العثماني، و التي يظهر فيها الآخر الجزائري متمردا و مأكرا حيث يقول الرحالة في هذا الشأن: « و قد اعتاد هؤلاء العرب الرحل الهروب إلى الصحراء عندما يقترب وقت تسديد الجباية، و لهذا كان داي الجزائر يرسل فرق الجند المعروفة بالمحلة إلى مواطنيهم وقت الحصاد ليتمكن من استخلاصها.»³⁶

يظهر البدو الجزائريون من خلال هذا النص الرحلي في صورة الماكربين والمتمردين على السلطان العثماني، حيث نجدهم غير مقتنعين بنظام الجباية الذي كانت تفرضه السلطات العثمانية الحاكمة لمنطقة شمال إفريقيا. فضلا عن ذلك فإن

الظروف القاسية التي كان يحياها هؤلاء في ظل الحكم العثماني يمكن عدّها من أبرز الأسباب التي تدفعهم إلى التهرب من الضرائب، ففشل السلطة العثمانية في إدارة وتحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية لسكان المنطقة كان كبيرا مما جعل « هؤلاء العرب لا ينفكون يسعون بدون هوادة إلى تدمير بقايا المدن القديمة خوفا من أن يستعمل أحجارها الأتراك في بناء حصون تساعد على إبقاء العرب تحت سيطرتهم كما حدث في العديد من الأماكن.³⁷ يبدو أنّ هذه الصورة السلبية التي صاغها الرحالة عن الآخر الجزائري كانت ردّة فعل طبيعية رغبة منه في التخلص من الحكم العثماني الذي طغت سلبياته على إيجابياته.^{*} فحكومة الأتراك التي تمارس القرصنة في عرض البحر المتوسط تمارس قرصنة مماثلة ضد الشعب الجزائري³⁸ ولعل هذا ما خلّف الملل و التمرد في نفوس الجزائريين بسبب هذه الإتاوات التي تدفع في كل مرة للحاكم التركي.

الخاتمة

- يعد النص الرحلي ميدانا خصبا لتجسيد صورة الشعوب بمختلف مكوناتها الحضارية و التاريخية... لما يقدمه من رؤى متنوعة عن تمثيلات الآخر.
- مثلت رحلة الطبيب و العالم الألماني ج.أ. هابنسترايت (J.E Hebenstreit) إلى الجزائر صورة شاملة متعددة السياقات، في فترة مهمة من تاريخ الجزائر؛ حيث تميزت تلك الفترة بالهيمنة الجزائرية على البحر الأبيض المتوسط.
- جسدت رحلة "ج.أ. هابنسترايت" الواقع الجزائري الاجتماعي و الاقتصادي والسياسي و الثقافي في النصف الأول من القرن الثامن عشر.
- لا يخفي الرحالة الألماني إعجابه بأخلاق الآخر الجزائري التي استمدها من الدين الإسلامي كما يعبر أيضا عن استغرابه من بعض العادات، و التقاليد على غرار المعاملة الحسنة للأسرى و غياب المرأة الجزائرية عن الحياة العامة...
- التزم الرحالة الألماني بالموضوعية في نقل صورة الآخر الجزائري وهذا ما أشار إليه مترجم الرحلة ناصر الدين سعيدوني و ما نوّكه نحن بعد إبحارنا في ثنايا رحلته؛ فقد قدم صورة الجزائر للقارئ بعيدا عن الأحكام الجاهزة والصور النمطية.

الهوامش:

1. حسين محمود فهمي، أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1989، ص: 12.
 2. ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص: 18.
 3. سعيد بنسعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة: صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، رؤية للنشر و التوزيع القاهرة، ط1، 2012، ص: 99.
 4. شعيب حليفى، الرحلة في الأدب العربي: التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، رؤية للنشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص: 150.
 5. الساوري بوشعيب، الرحلة و النسق: دراسة في إنتاج النص الرحلي رحلة ابن فضلان نموذجا، دار الثقافة للنشر و التوزيع، الدار البيضاء. المغرب، ط1، 2007، ص: 96.
 6. حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ط2، 1983، ص: 06.
 7. ينظر: ج. أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس (1145هـ - 1732)، تر: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، تونس، دط، ص: 12، 13.
 8. المصدر نفسه، ص: 17.
 9. المصدر نفسه، ص: 36.
 10. المصدر نفسه، ص: 49.
 11. المصدر نفسه، ص: 55.
 12. المصدر، نفسه، ص: 51.
 13. المصدر نفسه، ص: 29.
 14. للتوسع ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830)، ج: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ص: 141.
 15. ج. أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس (1145هـ - 1732)، تر: ناصر الدين سعيدوني، ص: 29.
- * الكراغلة: قول أوغلي أي أبناء العبيد، على اعتبار أنهم عبيد السلطان حسب العرف العثماني، و هم جماعة المولودين من آباء أتراك و أمهات جزائريات، لم يسمح لهم بتولي المناصب السامية التي ظلت حكرا على الأتراك القادمين من المشرق، و هذا ما سبب توترا في علاقتهم بديوان الجزائر و

أدى إلى طرد جماعات منهم من مدينة الجزائر إلى بلاد القبائل سنة 1693 . ينظر: المصدر السابق، ص: 29

16. ينظر المصدر نفسه، ص: 29

17. المصدر نفسه، ص: 32

18. المصدر نفسه، ص: 32

19. المصدر نفسه، ص: 33

20. ينظر: المصدر نفسه، ص: 32

21. المصدر نفسه، ص: 37

22. المصدر نفسه، ص: 37

23. المصدر نفسه، ص: 37، 38

24. المصدر نفسه، ص: 37، 38

*. برياريا: (Barbarie) تعريف اعتاد الأوروبيون وخاصة رجال الدين و القناصل إطلاقه على أقطار المغرب العربي في العهد العثماني، باعتبارها بلادا تمارس القرصنة و يتصف سكانها بالتوحش و القسوة و يتخذ حكامها موقفا عدائيا من الأوروبيين، و هم في ذلك يعبرون عن موقف عدائي تعود أصوله إلى مفاهيم الإغريق و الرومان عن الشعوب التي لا تنتمي إلى حضارتهم. ينظر: المصدر السابق، ص: 25

25. المصدر نفسه، ص: 25

26. ينظر: المصدر نفسه، ص: 24

27. محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التوحيدية، دار الساقى، بيروت، ط1، 2010، ص: 339

28. ج.أو.هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس (1145هـ-1732)، تر: ناصر الدين سعيدوني، ص: 47

29. المصدر نفسه، ص: 74

30. المصدر نفسه، ص: 35

*. هاينريش بارت: مستكشف و جغرافي ألماني حيث يعد الرحالة الألماني من أشهر الرحالة الغربيين الذين ساهموا خلال القرن التاسع عشر في استكشاف القارة الإفريقية و التعريف بأسرارها، حيث تمكن من زيارة المغرب الأقصى، و كذا السواحل الجزائرية، و أخيرا كمقيم بتونس ما بين 1845 و 1846.

31. ج.أو.هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو.هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس، تر: ناصر الدين سعيدوني، ص: 46

32. المصدر نفسه، ص: 47
33. المصدر نفسه، ص: 39، 38
34. المصدر نفسه، ص: 39
35. المصدر نفسه، ص: 59
36. المصدر نفسه، ص: 33، 32
37. المصدر نفسه، ص: 60
- *. لا بد من الإشارة إلى نقطة مهمة و هي قضية: عدم رضا السكان الأصليين لشمال إفريقيا بالحكم العثماني، حيث خلفت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية التي آلت إليها المنطقة أثناء الحكم العثماني رغبة كبيرة في التخلص من الحكم العثماني والاتجاه نحو الحكم الذاتي.
38. ينظر: وليام شالر، مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا بالجزائر (1816-1824)، تر: إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص: 191